وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

القيم الاجتماعية والأسرية في ضوء الهدي القرآني

(دراسة تطبيقية في القرآن الكريم)

اسم الباحث/ـة

د/ نورالدين دريم بن محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، حمدا يليق بجلاله، والصلاة والسلام على نبيّنا محمّد، خير نبيّ أرسل للنّاس كافة، أمّا بعد:

فخلق الله عزّ وجلّ الإنسان، وميّزه عن سائر المخلوقات بالعقل، ويسّر له سبل الحياة الكريمة، يقول عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء: ٧٠

إنّ التميّز منهج أصيل في الخُلق والخِلقة والدين، وهو أصل من أصول الخلق عموما، فالمولى تبارك وتعالى أكرمنا بالعقل، فنحن به متميزون ومختلفون عن باقي مخلوقاته، فالقدرات والمهارات والإمكانات مختلفة ومتفاوتة بدرجاتها ومراحلها بين الناس، فالإخوة من رحم واحدة وهم مع ذلك مختلفون، والتميّز مطلب شرعي في الدين الإسلامي الحنيف، وقد حثّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم عليه؛ لأنّه أهمّ وسيلة للنجاح، كما أنّه يساهم في تطوير البشرية، ويساعد بأشكال متنوعة على إيجاد التوازن والتكامل في الحياة الاجتماعية، وبناء حضارة إسلامية راقية.

ولا يتحقق ذلك كلّه إلا في ضوء الهدي القرآني، الذي لم يأت على ذكر مجال من مجالات الحياة إلا وبيّن القيم التي ينبغي أن تبنى عليه، فالحياة الدنيا من منظور الإسلام منظومة متنوعة من القيم، يكمّل بعضها بعضاً.

لا يخفى على عاقل أثر الهدي القرآني في تنشئة الخلق وفق منهاج ربّاني من خلال تزويده بالقيم التي تضمن له العيش في سعادة دنيوية، ناهيك عن السعادة الأخروية التي سينالها إن هو تمسّك بتعاليم الدين الحنيف، ومن تلك القيم التي اهتم بها الهدي القرآني وهذّبها، بعد أن طغى عليه سلطان الجهل، القيم الاجتماعية والأسرية.

تهدف هذه المداخلة إلى بيان القيم الاجتماعية والأسرية، ومدى فاعليّة هدايات القرآن الكريم في الرقي بها، وانعكاس ذلك كلّه على بناء أمة رائدة، من خلال الوقوف على جملة النصوص القرآنية التي تعرضت إلى ذكر تلك القيم وتحليلها تحليلا وافيا من منظور إسلامي.

ولبيان ذلك اعتمدت على المنهج الوصفي، لتقديم القيم التي عرضها القرآن الكريم، واستعنت بالتحليل للكشف عن أثر الهدايات القرآنية في بناء منظومة القيم الاجتماعية والأسرية لدى الفرد المسلم، بعد تتبع مواضع الإشارة إليها في القرآن الكريم.

١. مفهوم القيم الإسلامية:

تكاد تجمع المعجمات اللغوية على أنّ المعنى اللغوي للقيمة، هو الثمن، قال صاحب المصباح المنير: " القيمة الثمن الذي يقاوم به المتاع، أي يقوم مقامه والجمع القيم، مثل سدرة وسدر وشيء قيميّ نسبة للقيمة "[١]، وذكر الرازي في مختار صحاحه، ما نصه: " القيمة، واحدة القيم، وقوّم السلعة تقويما، وأهل مكة يقولون استقام السلعة وهما بمعنى واحد "[٢]، وجاء في القاموس المحيط، أنّ " القيمة بالكسر واحدة القيم، وقومت السلعة واستقمتها، ثمنتها، وقومته عدّلته، فهو قويم ومستقيم "[٣].

أمّا في الاصطلاح فهي " مجموعة المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون، والحياة والإنسان، والإله كما صوّرها الإسلام، وتتكون لدى الفرد والمجتمع، من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الحياتية المختلفة بحيث تمكّنه من اختيار أهداف وتوجّهات لحياته، تتفق مع إمكانياته،

---

(١) المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي الحموي، تحقيق أحمد جاد، دار الغد الجديد، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص٣٠١.

(٢) مختار الصحاح، الرازي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٣٠٣.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨، ص١٤٧٨. باب الميم فصل القاف.

وتتجسّد من خلال الاهتمامات أو السلوك العملي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة "[١] ، فالسلوك المادي أو المعنوي للفرد والذي تجسّد لديه في مجتمعه، يكسبه قيمة من القيم، تخضع لحكم يستند فيه إلى خطاب الشرع. أو هي " حكم يصدره الإنسان على شيء ما، مهتديا بمجموعة من المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع، محدّدا المرغوب فيه، والمرغوب عنه من السلوك "[٢].

وفي السياق نفسه جاء الحديث عن مفهوم القيم، بأنّها " مجموعة من الأحكام المعيارية المتصلة بمضامين واقعية، يتشربها الفرد من خلال انفعاله وتفاعله مع المواقف والخبرات، ويشترط أن تنال هذه الأحكام قبولا من جماعة معينة، حتّى تتجسّد في سياقات الفرد السلوكية، أو اللفظية، أو اتجاهاته واهتماماته "[٣].

إنّ المتمعّن في التعريفات السابقة لا يقف على اختلاف بيّن في مضامينها، وإن وجد فهو على مستوى الصياغة اللفظية لا يتعداها، مع نوع من التقديم والتأخير الذي لا يخلّ بمضمون هذا التعريف أو ذاك،

ويمكن أن نستنتج منها ما يلي:

- القيمة عبارة عن جملة من المعايير والضوابط.
- القيمة مكتسبة وتنطلق من الفرد ويتلقاها المجتمع بالرفض أو القبول.
- تحتكم القيمة دائما إلى الشرع، فهو المحدّد لمسارها الإيجابي الذي يجعلها تلقى قبولاً لدى المجتمع الذي تطرح فيه.
- لا تنحصر القيمة في كلّ ما هو مادي، بل تتجسّد بصورة أوسع في كلّ ما هو غير ماديّ.

---

(١) القيم الإسلامية والتربية، علي خليل مصطفى، دار طيبة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص٣٤.

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم، صالح بن عبد الله وآخرون، دار الوسيلة، جدّة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، ج١، ص٨١.

(٣) القيم في العملية التربوية، ضياء زاهر، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة، ١٩٩١، ص١٥.

٢. تصنيف القيم: تتنوع القيم باعتبارات مختلفة؛ لذلك نجد لها تقسيمات متعددة، وهي على النحو الآتي[١]:

– **القيم الأخلاقية الإنسانية:** وهي القيم التي تحتكم لمعيار الصواب والخطأ، والخير والشّر، في ضوء المعتقدات الدينية، والأعراف الاجتماعية الموروثة، التي تداولتها الشعوب، دون مرجعية دينية معينة أو جنس بعينه، مثل: العدالة، المساواة، الأمانة، التسامح، الحرية، النزاهة... وغيرها.

– **القيم الاجتماعية:** وهي القيم التي تحتكم إلى العلاقة القائمة بين الفرد وبني جنسه داخل إطار المجتمع الواحد، ومنها: الاحترام المتبادل، التعاون، نصرة الضعيف، تحمّل المسؤولية... وغيرها.

– **القيم المعرفية أو العقلية:** وهي تلك الأخلاق العلمية التي يكون ضابطها سمة عقلية، نحو: الدقة، الموضوعية، الفضول... وغيرها.

– **القيم الوطنية:** يعبّر عنها بالمواطنة الصالحة، وتقوم على أساس تفضيل المصلحة العامة على المصلحة الشخصية، منها: التضحية في سبيل الوطن.

– **القيم الشخصية:** وهي القيم المميزات الإيجابية لفرد ما داخل مجتمع ما، مقارنة مع أقرانه، ولها ما يقابلها من المميزات السلبية، نحو الصبر مقابل التهور، الشجاعة مقابل الجبن، المسؤولية مقابل اللامبالاة... وغيرها.

وما يهمّنا من هذه القيم، في سياق هذه المداخلة، هو القيم الأخلاقية، التي حاولنا استقراءها من كتب التربية الإسلامية، في مختلف المراحل التعليمية في الطور الابتدائية في المدرسة الجزائرية (السنة الأولى، والثانية، والثالثة).

ليست الغاية من التعليم في الطور الابتدائي بالجزائر، تلقين المهارات بمختلف أنواعها للتلاميذ فقط، بل العمل على تنشئتهم على النهج القويم والسلوك المستقيم في ضوء تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ولا يكون ذلك إلاّ من

---

(١) ينظر: القيم في العملية التربوية، ضياء زاهر، ص٣٨. وما بعدها.

خلال غرس القيم الأخلاقية فيهم، فلا قيمة للأول في غياب الثاني، فهو المعيار الوحيد الذي يحتكم إليه في مسيرته، فالعلم والخلق النبيل كوجهي العملة النقدية الواحدة.

٣. القيم الاجتماعية في ضوء الهدي القرآني:

أشار الهدي القرآني إلى منظومة من القيم الاجتماعية، ونبّه على ضرورة التمسك بها، وتحلّي الفرد بها، من أجل بناء مجتمع يعمه الصلاح والاستقرار والأمان، وقد بيّن منهج الرقي بها، ومن تلك القيم:

١,٣. قيمة الإصلاح:

يأتي الإصلاح بمعنى الصلح، وهو " يختصّ بإزالة النّفار بين النّاس، يقال منه اصطلحوا وتصالحوا "[١]، " والصالح: هو الخالص من كل فساد "[٢].

لما كانت لقيمة الإصلاح أثر كبير في بناء الأسر والمجتمعات، بناء متماسكا، أرشد إليها الهدي القرآني في عدة مواضع من القرآن الكريم، وعرضها وفق منازل متنوّعة منها:

– الإصلاح بين الزوجين:

تمثّل الأسرة في الإسلام، عصب المجتمع ومحرّكه، وبصلاحها يصلح المجتمع، لذلك حافظ عليها بكل السبل وجعل لها سدّا منيعا، يمنع عنها كلّ ما يؤدي إلى تفكّكها أو ضياعها، ومن تلك السبل السعي في الصلح بين الزوجين في حال الخصام والنشوز بينهما، قال تعالى ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ النساء: ١٢٨ [النساء ١٢٨].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، تحقيق نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، بيروت، دت، ص٣٧٣.

(٢) التعريفات، الجرجاني، تحقيق محمد باسل عيون السّود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣، ص١٣٤.

قال القرطبي " ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ لَفْظٌ عَامٌّ مُطْلَقٌ يَقْتَضِي أَنَّ الصُّلْحَ الْحَقِيقِيَّ الَّذِي تَسْكُنُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ وَيَزُولُ بِهِ الْخِلَافُ خَيْرٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى جَمِيعُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الصُّلْحُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَامْرَأَتِهِ فِي مال أو وطئ أَوْ غَيْرِ ذَلِك"(١). والصلح يكون بالنصيحة والموعظة الحسنة، ووصف بالخير لأنّه مطلب كلّ عاقل.

– إصلاح الموصي في حال مال عن الوصية خطأ:

ويحدث هذا كثيراً في مجتمعنا الإسلامي، بأن يحرم كلّ ذي حقّ من حقه بسبب الوصيّة، قال تعالى﴿ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة ١٨٢].

جاء في تفسير الآية ما نصّه " وأما الوصية التي فيها حيف وجنف، وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهاه عن الجور والجنف، وهو: الميل بها عن خطأ، من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك. فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم فهذا قد فعل معروفا عظيما، وليس عليهم إثم، كما على مبدل الوصية الجائزة "(٢)، فدلّ على ضرورة بذل الصلح بين الموصي والموصى له، ليتحقق العدل، وتعمّ المنفعة، ويدفع الشقاق والخلاف والنزاع.

– الإصلاح بين المسلمين:

لا يخفى على عاقل عاقبة الخصام والتشاجر بين المسلمين، فقد تصل في بعض الأحيان إلى التناحر، لذلك أرشد الهدي القرآني، إلى وجوب الإصلاح

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ج٧، ص١٢٥.

(٢) تفسير السعدي(تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنّان)، عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٣، ص٧٦.

بين المسلمين وذات البين، في غير موضع من القرآن الكريم.

قال تعالى﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ ﴾ [الأنفال ١].

قال تعالى﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات ٩].قال تعالى﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الحجرات ١٠].

جاء في التفسير " وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب والتواصل.

فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل – بسبب التقاطع –من التخاصم، والتشاجر والتنازع. ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابر"(١).دلّ ذلك على أنّه متى وقع الخلاف بين المسلمين وجب على إخوانهم المسارعة إلى الإصلاح بينهم، ويكون ذلك بالنصح وإزالة الشبهة، لتحقيق التآلف والتوادد والتواصل بينهم، وتأييد حقوق بعضهم على بعض. فكلّ ذلك لا محالة يزول به الشنآن.

– الإصلاح مطلب عام في الأمور كلّها:

دلّ الهدي القرآني على أنّ الإصلاح مطلب عام في كلّ شؤون الحياة، فأرشد إلى التّحلي بقيمته، قال تعالى " ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[الأعراف ١٤٢] .

ذكر السعدي في تفسير هذه الآية ما نصه " ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: اخْلُفْنِي فِي

(١) تفسير السعدي، ص٨٥٠.

قَوْمِي أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، وَأَصْلِحْ أي: اتبع طريق الصلاح وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ "[1]. فلم يوص موسى هارون عليهما السلام، إلاّ بالإصلاح مطلقاً من غير قيد، لما فيه من الخير الكثير، ودرأ المفاسد.

٢,٣.قيمة العدل:

جاء في مفهوم العدل أنّه" عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، ... وقيل :العدل، مصدر بمعنى :العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق[2]، وقيل " العدالة والمعادلة لفظ يقتضي معنى المساواة "[3].**العدل** صفة الله عزّ وجلّ، وصفة أنبيائه ورسله؛ لذلك أمر به عباده، فلم تزدهر أمة ولا حضارة، إلاّ وكان العدل عندها مقدّما في كلّ شيء، ولم تتخلف أخرى، إلا وغيّب العدل فيها، فمجتمع يحكمه العدل، سيحظى أفراده بالطمأنينة والاستقرار، لذلك شدّد الهدي القرآن بتمثل قيمة العدل والتحلي بها في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ودعا الفرد والمجتمع بتحقيقها، وبيّنها نتائج إقامته، وانعكاسه عليهما، وفي ما يلي ذكر لبعض الآيات الدالة **على قيمة العدل، وكيف أرشد إليها الهدي القرآني.**

– العدل بين المسلمين وغير المسلمين:

من مظاهر التّحلي بقيمة العدل، أن يكون المسلم عادلا مع إخوانه المسلمين، ومع غيره ممّن لم يكونوا على ملّة الإسلام، وهذا منهج رباني، قال تعالى قَالَتَعَالَى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ﴾[المائدة ٨].جاء في تفسير هذه الآية " ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيامُ لله

(١) تفسير السعدي، ص٣١٠.

(٢) التعريفات، الجرجاني، ص١٥٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن، ص٤٢٢.

شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم "[1].

دلّ ذلك على أنّ المسلم مطالب بإقامة العدل في القول والفعل، من غير إفراط ولا تفريط، في حقّ القريب والبعيد، والصديق والعدو، لأنّ ذلك غاية التقوى.

وجاء تعميم قيمة العدل واستحضارها أثناء الحكم، مهما كانت هوية المتخاصمين في قوله تعالى﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء ٥٨]، بدليل لفظ الناس؛لأنّ المسلم والكافر والمنافق وغيرهم قد دخلوا تحت هذا المسمّى.

قال السعدي في تفسيرها ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾، " وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به"[2].

وعلى هذا ينبغي أن نرسي دعائم قيمة العدل في كلّ شيء، وأن تكون قيمة عليا لدى أفراد المجتمع، ليتحقّق الاستقرار الباطني والظاهري.

٣,٣. قيمة الأمانة:

جاء في معناها أنّها " الأمن والأمانة والأمان، في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسما للحالة التي يكون عليها الإنسان، في الأمن، وتارة اسما لما يؤمن عليه الإنسان، نحو قوله تعالى " وتخونوا أماناتكم "، أي: ما ائتمنتم عليه "[3]، والمعنى الثاني هو المراد في هذا الموضع، والأمانة صفة الأنبياء والرسل

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ج١٠ ص٩٨.

(٢) تفسير السعدي، السعدي، ص١٨٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن، ص٣٢.

عليهم الصلاة والسلام وقد لقّب سيدّنا محمد صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين، وهي صفة جبريل عليه السلام فهو أمين الوحي.

لا تقلّ أهمية قيمة الأمانة عن القيم الأخرى، إذ بها يتحقّق الاستقرار النفسي لدى الأفراد، وينعكس ذلك بالإيجاب على المجتمع، ولما كانت قيمة الأمانة على هذا القدر من التأثير،

فإنّ الهدي القرآني، اعتنى بها أيّما عناية، وبيّن مواطن التحلّي بها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[النساء ٥٨].

جاء في تفسير الأمانات أنّها " الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به. فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء على أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك "(١). ونتبيّن من ذلك أنّ لقيمة الأمانة منازل في الهدي القرآني، وهي:

– أمانة بين العبد وربّه:

قال تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾[الأحزاب ٧٢].

قال السعدي في تفسير هذه الآية، عظّم الله عزّ وجلّ " شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأدَّيتِهَا على وجهها، فلك الثواب،

(١) تفسير السعدي، ص١٨٠.

وإن لم تقومي بها، فعليك العقاب "[1]. وعلى الرغم من عظم الأمانة فقد قبل الإنسان بحملها، لجهل منه بشأنها.

– أمانة بين العبد والخلق:

الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا يمكن له العيش منفردا في هذه الحياة، ومن نعم الله عليه أن جعل بينه وبين جنسه من يحف الأمانة،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾[البقرة ٢٨٣].

جاء في تفسير ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾ " أيْ فَلْيُؤَدِّ المِدْيُونُ الَّذِي كانَ أمِينًا ومُؤْتَمَنًا في ظَنِّ الدّائِنِ، فَلا يُخْلِفُ ظَنَّهُ في أداءِ أمانَتِهِ وحَقِّهِ إلَيْهِ "[2].

إنّ التحلي بقيمة الأمانة، يتيح للفرد المسلم المحافظة عليها أولا، فيجتهد في الوفاء بها، سواء بينه وبين ربّه، أو بينه وبين الخلق، فيعمل على ردّها كما تسلّمها سواء كان ذلك في الماديات أو المعنويات، في السر أو العلن.

٤,٣. قيمة الوفاء:

قيل في الوفاء أنّه " هو ملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلطاء "[3]، " ووفى بعهده يفي وفاء، وأوفى إذا تمّم العهد، ولم ينقض حفظه، واشتقاق ضده وهو الغدر يدلّ على ذلك، وهو الترك "[4].

أعطى الهدي القرآني لقيمة الوفاء مكانة خاصة، كون هذه الأخيرة مركز القيم الأخرى التي تشكّل منظومة القيم الإنسانية، فهي الدافع الأساس لارتقائه وسموّه مقارنة مع بني جنسه، فالوفاء يتجلى في مجالات شتّى نبّه عليها الهدي القرآني، وأرشد إلى سبل بلوغها، وفق منهج ربّاني، لا يزيغ عنه إلاّ هالك.

---

(١) تفسير السعدي، ص٧١٣.

(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ج٧، ص١٧٩.

(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٢٤٨.

(٤) المفردات في غريب القرآن، ص٦٧٥.

– وفاء العبد بعهد الله:

أرشد إليه الهدي القرآني في مواضع منها، قوله تعالى﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾[النحل ٩١].

جاء في التفسير في بيان المقصود بعهد الله، ما نصّه " ما عاهَدْتُمُ اللَّهَ تَعالى عَلَيْهِ مِنَ التِزامِ تَكالِيفِهِ وما عاهَدْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَكم مِنَ العِبادِ ويَدْخُلُ في ذَلِكَ العُقُودُ، وجُوِّزَ أنْ يَكُونَ المُرادُ ما عاهَدَكُمُ اللَّهُ تَعالى عَلَيْهِ وكَلَّفَكم بِهِ، والإيفاءُ بِالعَهْدِ والوَفاءُ بِهِ هو القِيامُ بِمُقْتَضاهُ والمُحافَظَةُ عَلَيْهِ وعَدَمُ نَقْضِهِ واشْتِقاقُ ضِدِّهِ وهو الغَدْرُ يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ وهو التَّرْكُ ولا يَكادُ يُسْتَعْمَلُ إلّا بِالباءِ فَرْقًا بَيْنَهُ وبَيْنَ الإيفاءِ الحِسِّيِّ كَإيفاءِ الكَيْلِ والوَزْنِ"(١)،

أي إنّ عهد الله يشمل كلّ ما عاهد العبد عليه ربه، من عبادات وأيمان وغيرها، على أن يكون الوفاء بها براً.

– وفاء العبد لمن حوله:

قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾[المائدة ١].

قال السعدي في تفسير الآية " هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها، ونقصها.

وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم. والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ، ج٧، ص٤٤٧.

التي عقدها الله بينهم "[1].

يضمن التحلي بقيمة الوفاء تقوية صلة العبد بربّه، وإقامة روابط متنية بينه وبين أقرانه في المجتمع، ممّا يحقق لديه الاستقرار النفسي والمجتمعي، فيعيش في سلام وطمأنينة.

٥,٣. قيمة الصبر:

قيل في الصبر أنّه " حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشّرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمّي صبراً لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمّي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمّي رحب الصدر، ويضاده الضّجر، وإن كان في إمساك الكلام سمّي كتمانا ويضاده المذل "[2].

للصبر مكانة عظيمة في الإسلام، لما خصّ به من ثناء من الله عزّ وجلّ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر ١٠]، هذا من جانب، وأنّه صفة الأنبياء جميعهم عليهم السلام، وصفة المؤمنين من عباد الله؛ لذلك فإنّ قيمة الصبر لا تضاهيها قيمة في الفضل، وقد تبوّأت مكانة سامقة بين القيم الأخرى، على اختلاف أنواعها، وقد بيّن الهدي القرآني هذه القيمة وأكدّ على التّحلي بها، لينال الفرد مراده وغايته في الدارين.

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة ١٥٣].

قال السعدي في تفسير هذه الآية " أمر الله تعالى المؤمنين، بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها

(١) تفسير السعدي، ص٢١٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، ص٣٥٩/٣٦٠.

عما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر، أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار، إلى تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر، فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً، وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار.

وكذلك البلاء الشاق، خصوصا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها، وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللُجأ إليه، والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به "[1].

يستفاد من قول السعدي أنّ للصبر منازل وهي صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على قدر الله، وعلى الإنسان أن يتحلّى بقيمة الصبر حتّى يؤدي طاعة الله على الوجه الأكمل والأمثل، وأن يتسلّح بها فلا يقرب محارم الله فيقع في المعاصي، وأن يتجلّد بها فيضبط النّفس عند حدودها فلا يسخط من أمر الله.

٤. القيم الأسرية في ضوء الهدي القرآني:

بيّن القرآن الكريم في هديه المتين والرصين أنّ الأسرة عماد المجتمع، ولبنائها بناء متماسكاً ومتكاملاً، لا بدّ أن تخضع لمنظومة من القيم وفق منهج رباني، ومن تلك القيم التي أرشد إليها الهدي القرآني، ما يأتي:

(١) تفسير السعدي، ص٦٤.

١,٤. قيمة الرحمة:

قال الراغب الأصفهاني" والرحمة رقّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقّة المجرّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرقّة نحو: رحم الله فلاناً، وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلاّ الإحسان المجرّد دون الرقّة، وعلى هذا روي أنّ الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقّة وتعطّف "[١] يظهر من قول الراغب أنّ الرحمة تتضمن معنيين، الرقّة والإحسان، فمتى كانت بين الآدميين فهي رقّة، ومتى كانت من الله عزّ وجل فهي نعمّة وفضل؛ لذلك تفرّد الله تعالى بالإحسان، وألحقت الرقّة بالآدميين.

دلّ الهدي القرآني في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، على قيمة الرحمة، وقد اتّصف الله عزّ وجلّ بالرحمة، فهو الرّحمان الرّحيم، ولا يطلق الرّحمان إلاّ على الله تعالى؛ لأنّ هذا المعنى لا يصّح إلاّ له،

فهو الذي وسع كلّ شيء رحمة، والرحيم كذلك، وقد كتبها أيضا على نفسه عزّ وجلّ، قال تعالى﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ [الأنعام ١٢]. قال السعدي في تفسير هذه الآية " أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه،

وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم "[٢].

ولما كانت قيمة الرحمة على هذا القدر الجليل والشأن، وصف بها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، مصداقا لقوله تعالى:﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، ص٢٥٣/٢٥٤.

(٢) تيسير الكريم الرحيم، السعدي، ص٢٥٥.

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة ١٢٨]. أي " شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم"(١).

ومن فضائل الهدي القرآني أنّه أمر الناس بالتحلّي بهذه القيمة، وجعلها عماد التعامل في بينهم، في كلّ زمان ومكان في ظعنهم وإقامتهم، وقد بيّن مراتبها على النحو الآتي:

– بين الولد ووالديه:

قال تعالى﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[الإسراء ٢٤].

جاء في تفسير هذه الآية" ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما ذلاً لهما ورحمة واحتساباً للأجر لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد، ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتا، جزاء على تربيتهما إياك صغيرا"(٢)، هذا إن كانا مسلمين موحّدين.

ولما أمر الولد ببذل الرحمة لوالديه، فقد مسّ جانب من تلك القيمة الوالدين غير مسلمين، وعبّر عنها الهدي القرآني بالمصاحبة، قال تعالى﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان ١٥]، قال السعدي في قوله تعالى﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، " أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما "(٣).

– بين الزوج وزوجته:

تتجلّى قيمة الرحمة بين الزوج وزوجته ، في العلاقة الشرعية التي يضبطها

(١) تيسير الكريم الرحمان، السعدي، ص٣٧٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمان، السعدي، ص٤٧٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمان، السعدي، ص٦٧٧.

الزواج بأركانه المكتملة، وقد بيّنها الهدي القرآن، بأرقى أسلوب، في قوله تعالى﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم ٢١].

جاء في تفسير قوله :﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ﴾ "يقول: جعل بينكم بالمصاهرة والختونة مودة تتوادّون بها، وتتواصلون من أجلها، ﴿ وَرَحْمَةً ۚ﴾ رحمكم بها، فعطف بعضكم بذلك على بعض "(١).

- بين النبي صلّى الله عليه وسلّم وصحابته رضوان الله تعالى عليهم أجمعين:

بيّن الهدي القرآني قيمة الرحمة التي ثبتت في زمن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين الصحابة الكرام، وبين الصحابة الكرام فيما بينهم، في أوضح صورة وأجمل بيان، قال تعالى﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾[الفتح ٢٩].جاء في التفسير: " يقول تعالى ذكره: محمد رسول الله وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه، ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ ﴾، غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾

يقول: رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم "(٢).كان التراحم والحبّ والتعاطف، صفات تحلّى بها الصحابة في زمن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أثبتت قيمة الرحمة عندهم، فطبعوا عليها في معاملتهم للخلق.

– بين عباد الله بعضهم لبعض:

أوصى الهدي القرآن عباد الله بالتراحم فيما بينهم، وهنا تتجلى قيمة الرحمة، في معناها الحقيقي، إذ لا يمكن العيش في مجتمع يخلو من رحمة، وجاء التعبير عنها في القرآن، في قوله تعال: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد ١٧]. جاء في تفسيرها ما نصه:

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير، ج١٨، ص١٤٢.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير،ج٢١، ص٨٧.

" ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه "(١). فإن تمّ ذلك، فقد رحموا اليتيم والمسكين وهما إلى الرحمة أشدّ، ويقه ذلك باستكثار الخير والصدقات وغيرها ممّا هو داخل في حيّز الخير عموما، فيتحقّق الصدق مع الحقّ والخُلُق مع الخَلق.

٢,٤. قيمة الصدق:

يعدّ الصدق من أنبل الخصال الحميدة، التي ينبغي على الإنسان أن يتحلّى بها، مهما كانت الظروف، ومهما تعددت المواضع والمواقف، خاصة في يوم الناس هذا، إذ أصبح كثير من الناس لا يلقون بالا لكلمتهم، أصدقا قالوا، أم كذبا نطقوا، وأمّا عن الصدق في الهدي القرآني، فقد كثرت مواضعه، قال تعالى﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ ﴾[آل عمران ٩٥]، فكان صفة لله عزّ وجلّ، وصفة للرسل والأنبياء، قال تعالى﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[يس ٥٢]، وصفة لعباد الله المؤمنين، قال تعالى﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات ١٥]. لما كان الصدق طريقا للبرّ، يبني الإنسان بناء متماسكا، في جميع المواقف باختلاف طبيعتها، حثّ الله عزّ وجلّ عباده بالتحلّي به، وقد بيّن الهدي القرآني قيمة الصدق في مواضع هذا بيانها:

– الصدق قيمة فارقة بين الإيمان والنفاق:

قال تعالى﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[التوبة ٤٣].

(١) تفسير السعدي، السعدي، ص٩٧٢.

جاء في تفسير هذه الآية ما نصه " ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أيْ: في التِزامِ الأوامِرِ بِما أقَرُّوا بِهِ مِن كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أيْ: فِيما أظْهَرُوا مِنَ الإيمانِ بِاللِّسانِ، فَإنَّكَ إنْ لَمْ تَأْذَنْ لَهم لَقَعَدُوا بِلا إذْنٍ غَيْرَ مُراعِينَ مِيثاقَهُمُ الَّذِي واثَقُوكَ عَلَيْهِ بِالطّاعَةِ في العُسْرِ واليُسْرِ والمنشَطِ والمكْرَهِ"(١).

حتّى ولو لم يأذن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لهم، كان سيظهر الصدق من الكذب، فيسافر المؤمن المطيع، ويقعد المنافق العاصي.

– لقيمة الصدق علامات تدلّ عليه:

معنى ذلك أن الإنسان إذا كان صدقاً وتمثّل قيمة الصدق في كل منطق وموضع، كان ذلك مخرجا له، حتّى وإن صارعه الكذب، مثلما حدث في قصة يوسف عليه السّلام، وامرأة العزيز، قال تعالى ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[يوسف ٢٦].

قال السعدي في تفسير الآية " فبرأ نفسه مما رمته به، وقال :﴿رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمنَّ الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال:﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب"(٢). فكان الصّبي شاهد النبي يوسف عليه السلام، علامة براءة ما اتّهم به.

---

(١) تفسير القرآن الكريم، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق إبراهيم رمضان، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠، ص٣٠٣.

(٢) تفسير السعدي، السعدي، ص٤١٤.

– قيمة الصدق عند المؤمن الموحّد والتي ينبغي على كلّ إنسان أن يتحلّى بها:

بيّن الهدي القرآني التركيبة المثالية لقيمة الصدق، فالصدق لا يتوقف على القول فقط بل يتعداه إلى أكثر من ذلك، والآية الكريمة الآتية، فصّلت في مكوّنات قيمة الصدق التي ينبغي على الإنسان أن يتحلّى بها، وذلك في قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة ١٧٧].

فقيمة الصدق المثلى تتجلى عند كلّ من اتّصف بالعقائد الحسنة، وكانت أعماله برهانا على أثر إيمانه، وارتقوا بأخلاقهم إلى حقيقية الإنسانية، لا الماديات؛ لأنّ الإيمان عندهم صدّقه العمل.

٣,٤. قيمة الإحسان:

جاء في معجم التعريفات أنّ الإحسان " هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤية الحق موصوفًا بصفاته بعين صفته، فهو يراه يقينًا ولا يراه حقيقة "(١).

وقد بيّن الهدي القرآني أهمية قيمة الإحسان في حياة الفرد والمجتمع، وقد ذكرت في أجمع آية لخير أو لشرّ، في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل ٩٠].

قال ابن جرير متحدّثا عن هذه الآية وفضلها، " إنه ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خُلق سيّئ

(١) التعريفات، الجرجاني، ص١٦.

كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدّم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومَذامّها "[1]،

فيظهر من هذا أنّ لقيمة الإحسان أهمية كبرى، وجب على الإنسان المسلم أن يتحلّى بها، وأن يجسّدها في حياته اليومية قولاً وفعلاً.عرض الهدي القرآني منازل قيمة الإحسان في القرآن الكريم، وقد جاءت على النحو الآتي:

– شمولية الإحسان لما هو مادي ومعنوي:

جاء الأمر بالإحسان عموماً في قول الله عّز وجلّ ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة ١٩٥].

قال السعدي في تفسير هذه الآية، مبيّنا أمر الله بالإحسان " وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاه، بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك، الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك، مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً، الإحسان في عبادة الله تعالى "[2].

– الإحسان إلى الوالدين:

وجاء ذلك في غير موضع في القرآن الكريم، ممّا يدل دليلاً قاطعاً على وجوب الإحسان إلى الوالدين على أية صفة، وبأي شكل من الأشكال، وخاصة في حال كبرهما، ومن ذلك قوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[الإسراء ٢٣].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ج ١٥، ص١٢٠.

(٢) تفسير السعدي، السعدي، ص٨٠.

قال القرطبي في تفسير قَوْلُهُ تَعَالَى :﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، " الْإِحْسَانُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بِرُّهُمَا وَحِفْظُهُمَا وَصِيَانَتُهُمَا وَامْتِثَالُ أَمْرِهِمَا وَإِزَالَةُ الرِّقِّ عَنْهُمَا وَتَرْكُ السَّلْطَنَةِ عَلَيْهِمَا "(١).

بيّنت الآية الكريمة قيمة الإحسان للوالدين، فجاء لفظ الإحسان نكرة، ممّا يوحي بدخول جميع وجوه الإحسان تحته قولا وفعلا، بداية ببذل البرّ إليهما، ثمّ اللطف والتلطّف بهما حال الكبر، واجتناب إذايتهما أدنى إذاية، إذ نبهت الآية على ذلك (في كلمة أفّ)، وعدم زجرهما أو التكلّم معهما بكلام خشن لا يليق بمقامهما، وختمت الآية بتوجيه للأبناء بأن لا يصدر عنهم إلاّ القول اللين الحسن، الذي يطيّب خاطرهما، ويفرح قلبيهما، في كلّ زمان ومكان، وذلك غاية الإحسان إليهما.

– الإحسان بالحدّ لا بالعدّ:

بدءاً بالوالدين، فالقريب، والفقير، والمسكين، والنّاس جميعا، ويتجلّى ذلك في قوله الله تعالى﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[البقرة ٨٣].

لم يغفل المفسرون مراتب الإحسان في الآية، قال أبو حيّان: " وكانَ تَقْدِيمُ الوالِدَيْنِ لِأنَّهُما آكَدُ في البِرِّ والإحْسانِ، وتَقْدِيمُ المجْرُورِ عَلى العامِلِ اعْتِناءً بِمُتَعَلِّقِ الحَرْفِ، وهُما الوالِدانِ، واهْتِمامًا بِأمْرِهِما. وجاءَ هَذا التَّرْتِيبُ اعْتِناءً بِالأوْكَدِ. فَبَدَأ بِالوالِدَيْنِ، إذْ لا يَخْفى تَقَدُّمُهُما عَلى كُلِّ أحَدٍ في الإحْسانِ إلَيْهِما، ثُمَّ بِذِي القُرْبى؛ لِأنَّ صِلَةَ الأرْحامِ مُؤَكَّدَةٌ أيْضًا، ولِمُشارَكَتِهِ الوالِدَيْنِ في القَرابَةِ، ثُمَّ بِاليَتامى، لِأنَّهم لا قُدْرَةَ لَهم تامَّةٌ عَلى الِاكْتِسابِ، وقَدْ جاءَ: ''أنا وكافِلُ اليَتِيمِ كَهاتَيْنِ في الجَنَّةِ '' وغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الآثارِ، ثُمَّ بِالمساكِينِ لِما في

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي، ص٢٥٠.

الإحْسانِ إلَيْهِمْ مِنَ الثَّوابِ. وتَأخَّرَتْ دَرَجَةُ المساكِينِ؛ لِأنَّهُ يُمْكِنُهُ أنْ يَتَعَهَّدَ نَفْسَهُ بِالِاسْتِخْدامِ، ويُصْلِحَ مَعِيشَتَهُ، بِخِلافِ اليَتامى، فَإنَّهم لِصِغَرِهِمْ لا يُنْتَفَعُ بِهِمْ، وهم مُحْتاجُونَ إلى مَن يَنْفَعُهم...ولما ذَكَرَ بَعْدَ عِبادَةِ اللَّهِ الإحْسانَ لِمَن ذَكَرَ،... أعْقَبَ بِالقَوْلِ الحَسَنِ، ... ولَمّا كانَ القَوْلُ سَهْلَ المرامِ، إذْ هو بَدَلُ لَفْظٍ لا مالٍ، كانَ مُتَعَلِّقُهُ بِالنّاسِ عُمُومًا إذْ لا ضَرَرَ عَلى الإنْسانِ في الإحْسانِ إلى النّاسِ بِالقَوْلِ الطَّيِّبِ"(١).

– الإحسان إلى اليتيم:

أقرّ الهدي القرآني، صورة من صور الإحسان إلى اليتيم، وهي عدم التصّرف في ماله، إلاّ إذا كبر واشتدّ عوده، مصداقا لقوله تعالى﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾[الأنعام ١٥٢].

قال الألوسي في تفسير هذه الآية ﴿ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ " أيْ بِالفِعْلَةِ الَّتِي هي أحْسَنُ ما يُفْعَلُ بِمالِهِ كَحِفْظِهِ وتَثْمِيرِهِ وقِيلَ: المرادُ لا تَقْرَبُوا مالَهُ إلّا وأنْتُمْ مُتَّصِفُونَ بِالخَصْلَةِ الَّتِي هي أحْسَنُ الخِصالِ في مَصْلَحَتِهِ فَمَن لَمْ يَجِدْ نَفْسَهُ عَلى أحْسَنِ الخِصالِ يَنْبَغِي أنْ لا يَقْرَبَهُ وفِيهِ بُعْدٌ والخِطابُ لِلْأوْلِياءِ والأوْصِياءِ "(٢). ممّن لهم وصاية على اليتيم وماله.

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسى، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ج١، ص٤٥٧.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، ج٤، ص٢٩٦.

خاتمة:

١. اهتمّ الهدي القرآني ببناء الإنسان في جانبيه الروحي والمادي، وذلك من خلال منظومة القيم التي اشتمل عليها القرآن الكريم، وفق منهج ربّاني، رسمت معالمه وحدوده، ليبلغ الإنسان غاية النضج في التفكير والتدبّر، بما يحقق له السعادة الدنيوية والأخروية.

٢. يعدّ القرآن الكريم المصدر الأول المعتمد في بناء منظومة القيم باختلاف أنواعها، إذ أرشد إلى معالم القيم الإنسانية التي يلجأ إليها الإنسان في حياته، ليرتقي إلى المقصد الأسنى الذي من أجله خلقه الله عز وجلّ، فيحقّق الخلافة والعمارة والعبادة في أمثل صورة.

٣. منهج الهدي القرآني، منهج متكامل متفرّد وسطي في بناء القيم الإنسانية، لذلك فهو صالح لكلّ فرد ومجتمع في كلّ زمان وفي كلّ مكان.

قائمة المصادر والمراجع

١. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٢٠ هـ.

٢. التعريفات، الجرجاني، تحقيق محمد باسل عيون السّود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣.

٣. تفسير السعدي(تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنّان)، عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٣.

٤. تفسير القرآن الكريم، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق إبراهيم رمضان، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠.

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

٨. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.

٩. القيم الإسلامية والتربية، علي خليل مصطفى، دار طيبة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.

١٠. القيم في العملية التربوية، ضياء زاهر، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة، ١٩٩١.

١١. مختار الصحاح، الرازي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨.

١٢. المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي الحموي، تحقيق أحمد جاد، دار الغد الجديد، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.

١٣. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١.

١٤. المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، تحقيق نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، بيروت، دت.

١٥. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم، صالح بن عبد الله وآخرون، دار الوسيلة، جدّة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة.